كل الكتب القديمة التي لا تذكر الطوفان اقدم منهُ . ومع ذلك لا اظن في انها كانت مخلصة في اول امرها ولكني ارى انها خُدِعت والغالب ان الذين يخدَعون لا يطول عليهم الامر حتى يخدعوا غيرهم ايضاً

وقد كثر اتباعها في الهند وسيلان وفي انكلترا وفرنسا واميركا وهم يعتقدون انها نبيَّة ملهمة . وعندي انها كانت في اول امرها حمساء في الدين ثم مالت الى الشهرة واخيراً خدعت نفسها وخدعت غيرها

اللغة ومذهب الماديين

لجناب يوسف افندي شلحت

عابني احد القراء بانني ذكرت مذهب الماديين في حاشية علقتها على مقالة في بحث لغوي . واستغرب قولي ان هذا المذهب ينقض اركان اللغة . وذلك لزعمهِ ان لاعلاقة للغة بمذهب فلسفي

فانا لا اعجب من استغراب حضرتهِ لانهُ اعتبر اللغة انها آلة صناعية فقط ولم يفكر بانها عماد العلم والفلسفة لانها الحد الفاصل بين البهاوات والادميين

ولازالة الشبهة بهذا الخصوص قد اتخذت على نفسي ان ابين في هذا البحث بالتطويل الشافي ما ذكرتهُ على سبيل الاستطراد في حاشيتي المشار اليها فاقول

اللغة في عرف الفلاسفة استعداد غريزي يتمكن بهِ الانسان من اظهار افكارهِ وافعالهِ وانفعالاتهِ . وهذا الاستعداد يوجد بالقوة في كل بني البشر منذ يوم ولادتهم . قلت " بالقوة " لاننا اذا تصورنا طفلاً كان منذ ولادتهِ اعمى اصم ابكم فهذا الطفل لايستطيع اظهار افكارهِ لعوارض حالت دون استعمال الاستعداد المفطور هو عليهِ لالعدم وجود هذا الاستعداد فيهِ . ومتى زالت منهُ هذهِ العوارض تمكن من اظهار هذه القوة فعلاً مثل بقية ابناء جنسهِ

واذا دققنا النظر في الكلمات التي تقوم بها اللغة رأينا اكثرها كلمات مجردة تدل على معاني شاملة غير حسية لاعلى ذوات مفردة حسية . فالكلام في لغتنا العربية مثلاً ثلاثة : اسم وفعل وحرف . فالافعال والحروف كلها تدل على معاني شاملة تطلق على

اشياء كثيرة . واما الاسماء فالصفات منها شاملة لانها قابلة الاطلاق على اشياء كثيرة . وليس من اسماء الذوات ما يطلق على اشياء متعددة سوى اسماء العلم . وهذه الاسماء (اذا ضربنا الصفح عن اغلب الاسماء الجغرافية) اصبحت هي ايضاً شاملة . لان اسماء اسكندر ومحمد واحمد وابراهيم وسليمان وامثالها وان كانت قد وضعت في الاصل للدلالة على اناس مفردين صارت بنوع ما عمومية منذ يوم تعدد الاشخاص الذين سُمّوا بها . فان قلنا مثلاً " سافر محمد " فاسم محمد لا يفيد السامع معرفة تدفع كل شبهة عن شخصية المسافر لكثرة الافراد المدعوين بهذا الاسم

ولا يخفى ان هذه الاسماء التي يحق لها ان تدعى كليات لا تدل على اشياء حاسية . بل هي صور ذهنية نستطيع تمثيلها بقوة التجريد التي تميزنا عن البهائم . فكلمة انسان مثلاً لا تدل على ذات يدعى بهذا الاسم . بل على صفات نراها متماثلة في افراد كثيرين . فنجردها بقوة العقل ونطلق عليها هذا الاسم لندل به على كل فرد من الافراد المتصفين به

وهذه قوة التجريد التي هي قوام اللغة وبها يقوم العلم ينكرها الماديون ويسخرون بها مدعين انها وهم توهمهُ الفلاسفة النظريون الذين استشن اديهم وتأود قويهم

قال احد الكتاب الافاضل في كراسة لهُ ليس في طاقة الطبيعي ان يعلم الحقائق والماهيات وكل علمهِ قاصر على معرفة الكميات والكيفيات فهو لا يستطيع الكلام على الذوات مجردة عن صفاتها المقومة لها فلا يعرف الحياة الاَّ من افعالها كما انهُ لا يعرف الجاذبية او الالفة او سواها من القوى الطبيعية الاَّ من افعالها فنظرهُ الى الحياة مجردة ضرب من العبث ..... ولما كان النظر الى الحقائق يقتضي النظر الى الشيء مجردًا عمَّا يقوم بهِ نشأ ما يسمونهُ التجريد فاشتغل الناس بالبحث عن هذه الحقائق المجردة فتاهوا فيها بحكم الضرورة وضلوا في معرفتها (انتهى)[1]

قلت لو تبصر حضرة الكاتب الفاضل في نتائج اقوالهِ بعين الفلسفة لا بعين الطبيعة لاخذتهُ الدهشة من الغلو والافراط اللذين حملاهُ على ان يهدم بقليل من الكلام يروج العلوم الشامخة التي هي تحتد مجد العالم الانساني ومركز دائرته الادبية

واني لاعجب كيف لم ينتبه حضرتهُ ان التجريد الذي عابهُ في الفلاسفة النظريين

(١) من غرائب مناقضات هذا الكاتب الفاضل انهُ بحث في فصل سابق عن الجواهر الفردة مع ان هذه ليس لها كم لانها غير قابلة القسمة ولا يعرف لها كيف لانها غير منظورة فجعله هذا اذًا كان عن سعتقة ماهيتها وهو بذلك خرج من دائرة المباحث الطبيعية ووقع في التجريد الذي عابهُ في الفلاسفة النظريين

موجود في كل كلمة من الكلمات التي اتى بها في اقواله المشار اليها

على اننا لو امعنا النظر في مدعيات الطبيعيين والماديين والكيماويين الذين قاموا في هذا القرن ينقضون مبادئ الفلسفة النظرية لرأينا خطاءهم قائماً بتجاوزهم الحدود المفروضة لهم . ذلك لان الفلسفة النظرية تبتدئ حيث تنتهي العلوم الطبيعية . وكل طبيعي يبحث عما لا يقع تحت الحواس بواسطة استقرائه المحسوس وبقوة الاستدلال يجب ان يكون فيلسوفاً وان يعتمد في بحثه على المبادىء الفلسفية المقررة (٣)

وهذه قوة التجريد التي ينكرها الماديون وبها تمكن الانسان من وضع الالفاظ اللغوية هي ممتازة امتيازاً جوهرياً من الحواس وبرهان ذلك ان الحواس لا تمثل الا الموجودات المادية والكلمات المجردة لا تدل على موجودات مادية فالقوة التي تمثلها اذاً هي شيء ممتاز عن الحواس . فالعلوم الهندسية مثلاً تبحث عن الاشكال الهندسية بحسب ادراك العقل لها لا بحسب تصورها بواسطة الحواس . فقولنا مثلاً الشكل المثلث او المربع او المسدس لا يدل على اشكال حاسية مصورة على ورق او خشب او حجر تختلف حدودها ومقاديرها . بل يطلق على اشكال ذهنية واحدة لها صفات متماثلة مهما كانت مقاديرها وحدودها واذا اشرنا الى كلمة زاوية فكل منا يفهم مدلولها المجرد الشامل ولكن اذا اردنا تصور زاوية بقوة الحواس فلا بد ان نمثل زاوية مخصوصة لخطيها انفراج معين مثل الزاوية القائمة او المنفرجة او الحادة ولا يمكن ان تتصور بواسطة المشاعر زاوية شاملة لهذه الاشكال الثلاثة

وكذلك تصورنا لالوف والوف من الكلمات مثل كلمات جوهر وعرض وامكان ومحال وعلاقة وعلة وشر وخير وعدل وظلم وامثالها فهو تصور غير حسي لان الجوهر والعرض والامكان الخ ليست باشياء هيولية تقع تحت الحواس

فينتج مما تقدم ان الماديين الذين ينسبون جميع التصورات الذهنية الى فعل الحواس ينقضون ركن اللغة التي يدل اغلب كلماتها على اشياء يستحيل تصورها بقوة الحواس لانها غير حاسية

---

(٣) سمعنا عن احد الاطباء الماديين انه قال يوماً في مجمع دار بين الحاضرين فيه الكلام عن وجود النفس التي لم ار مقراً للنفس في كل الجثث التي شرحتها وهي اكثر من ان تحصى . فقول هذا الطبيب الفيلسوف هو صدى الماديين الذين ينكرون وجود النفس لانهم لا يرونها ولا يشاهدون لها مقراً وهم يجهلون او يتجاهلون ان مقرها في كل ذرة من ذرات اجسامهم التي هي تحيها وهي روح بسيطة ليس لها كم ولا تشغل مكاناً